الأستاذ عبد الرحمن شكرى

عبد الرحمن شكرى أحد زعماء الشعر العربى فى عصره، وهو أولُ ثلاثة انْتَقَلُوا بالمنحى الشعرى من ضرب إلى ضَرْب، حيث عملوا على تأصيل قواعد تجديدية تتَّصل بالوحدة العضوية، والتجربة الشعرية، والتحليل العميق للنفس الإنسانية، وتنوّع القافية تنوعًا لا تشذّ به الموسيقى الخارجية التى تطلبها الأذن السّامعة، ولكنّ ظروفًا فوق إرادته، جعلتْه يعتزلُ الناس مدة طويلة فى كهولته، ثم أجبره المرض على الاعتزال القهرى فى شيخوخته، وكنتُ فى الخمسينيات أعرفُ أنه يُقيم بالإسكندرية، وأحس رغبةً حارَّة فى لقائه، والتمتّع بتوجيهه، وقد أخبرتُ تلميذه ومريده الوفى الأستاذ (نقولا يوسف) برغبتى فى هذه المقابلة، والأستاذ نقولا رقيقُ الحس، نبيل الشعور، فلم يشأ أن يقول إن ظروفه الشخصية والمنزلية لاتتيحُ اللقاء على وجه سريع، بل قال إنه سيرعى إنجاز هذه المسألة متى سمحت الأحوال. ودعوتُ الله أن تسمح.

وفى سنة ١٩٥٧ كتبَ إلىَّ الأستاذ نقولا يقول، إنه اتّفق مع الأستاذ أسعد حُسنى رئيس تحرير مجلّة العالم العربى أن يُصدر عددًا ممتازًا من المجلّة خاصا بأدب الأستاذ شكرى، وريادته الشعرية، وقد دَعَا صفوةً من تلاميذه إلى المشاركة فى تحرير هذا العدد، لذلكَ يرجو أن أُسْهِمَ بكلمةٍ شافية تتفق وهذه المناسبة الكريمة، لأنّ العددَ سينشر بمناسبة بلوغ الشاعر الكبير سّن السبعين، ولأمر أراده الله لم يصلِ الخطاب فى حينه، بل توجّه إلى مدرسة بالمنصورة غير التى أقومُ بالتدريس بها، وحمله بعض الزملاء فى جيبه، ثم إلى منزله حتّى يلقانى مصادفةً، ولم يتيسر اللقاء إلاّ بعد صدور العدد، فأسفتُ أسفًا شديدًا لضياع هذه السانحة،

وكتبتُ للأستاذ نقولا أُعلن له حقيقة ما كان، فردّ مسامحًا، وقال: إن الفرصة لاتزال مُهَيّأةً، فصاحب مجلة العالم العربى يُرَحِّب بكل مقال يبحثُ فى آثار عبد الرحمٰن شكرى، وقد أنبأه أن العدد الخاص به لاقىَ رواجًا غير منتظر، فلم يرجع مِنْه شىء إلى مخزن المجلّة، وأن الأستاذ شكرى كان سعيدًا بهذا الرواج سعادة تامة.

المقال الأوّل:

وقد سارعتُ فكتبت مقالاً حول نظرات شكرى فى الأدب العربى، لأنّ الشاعر الكبير كان قد نشر بمجلتى الرسالة والمقتطف عدّةَ مقالات عن الشعراء الكبار فى العصر العباسى، من أمثال أبى تمام، والبحترى، وابن الرومى، والشريف الرضى، والمتنبى، ومهيار، وأبى العلاء، وأبى نواس، أتَى فيها بالجديد الطريف، وكان كلّ بحث خاص يقومُ مقام مؤلَّفٍ مستقل فى كتابٍ منفرد، لأن نظرات الناقد الحصيف كانتْ من الطرافة وصدق الاستشفاف، ودقّة النظرة بحيثُ فاجأتَ القُرَّاء بما لايعلمون عن شعراء كبارٍ كثر الحديث عنهم كثرةً تفوق الحصر، وكُتِبتْ عنهم الأجزاء المتعددة شرقًا وغربًا، حافلةً بما رَاقَ وشاق، ولكن نظرات شكرى الصائبة أضافتِ الجديد. ثم أرسلتُ المقال إلى الأستاذ أسعد حسنى، فبادَر بنشره، وأعلمتِ الأستاذ نقولا يوسف بما كان، فكتب إلىَّ على عَجَلٍ يقول: إن ماكتبتهُ صَادَفَ ارتياحَ الأديب الكبير، وأنه قرأه مَسرورًا كل السرور، وذكَر أنّ الأقلام تتناوله شاعرًا لاناقدًا، وأن هذا المقال قد ذكَّرَ الناس به ناقدًا ذاجدّ واجتهاد، كما أنّه وضع سطورًا تحت أفكار يخالفنى فيها، ولم يشأ الأستاذ نقولا أن يسأله عن وجه المخالفة، ولكنَّ سرور شكرى بالمقال أعادَ إليه رجاءً فى أبناء الجيل الجديد، إذ عرَف أنهم لم ينسوه شاعرًا وناقدًا.

المقال الثانى:

قرأتُ خطاب الأستاذ نقولا، فصمّمت على أن أعيد الكَرَّة، متحدثًا عن بعض مقالات الشاعر النقدية، ما دامَ الحديث عن نتاجه الأدبى المنثور قدْ صادفَ

ارتياحه، وكنتُ أعرف أنّه خاض معركة نقدية تحت عنوان (بين القديم والجديد)، بمجلة الرسالة استغرقتْ عدّة أشهر متتالية، لأن الأستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوى كانَ قد نشر عدّةَ مقالات عن القديم والجديد فى الأدب العصرى، ذهب فيها إلى أنّ المجددين من الشعراء والكُتّاب يحاربونَ القديم انتصاراً للتحلّل والمروق، لارغبةً فى التجديد، ولما كانَ الأستاذ شكرى من زعماء التجديد الأدبى المعاصر، فقد رأى أن يُعارض ما اتّجه إليه الأستاذ الغمراوى، فنشرَ عدّة مقالات لم تكنْ ممهورةً باسمه، ولكنّ الزيات قال إنها بقلم (أحد أساطين الأدب الحديث)، وعَرَفَ النابهون من القراء أنّ شكرى صاحبُ هذه المقالات، لأن أسلوبَه مشتهر ذائع، وطريقته التحليلية لاتخفى على مُطلع مثابر، وكانَ مِنْ رَأى شكرى أنّ التَّحَلل يوجد فى الأدب القديم كما يُوجد فى الأدب المعاصر، وأن التصوّنَ كذلك يوجد فى الأدبين، وليس المجون فى الأدب المعاصر وليدَ التأثر بالأدب الأوربى، لأنّه وُجد فى الأدب العربى جاهليا واسلاميا، وطبائعُ النفس البشرية هى هى فى كل زمان ومكان، قرأتُ هذه المقالات حين صدورها، وَوَجّهتْنى توجيهًا صحيحًا إلى حقائق أدبيّه كنت أجهلها، فكتبتُ مقالا تحت عنوان: (شكرى بين القديم والجديد)، وأرسلتُهُ إلى مجلة العالم العربى، فنُشر بدون إبطاء، وحملَه الأستاذ نقولا إلى الشاعر الكبير، فبدأ بمراسلتى شاكرًا، وقد حزنت كثيرًا حين جاءنى خطّهُ المريض مُبعثرًا فى الصحيفة، إذ كان يعانى من الشلل، ومع ذلك أصرَّ على كتابة الخطاب إصرارًا كلّفه كثيرًا من الجهد والوقت، إذا لايستطيع أن يكتبَ الكلمة الواحدة ويدهُ ترتجف بدون مشقة أليمة، ولا أكتم القراء أنى تأثرت حتى سقط الدمع من عينى!! ورَددت عليه ردا مستفيضًا حافلا أخبُره بتقدير الجميع لأدبه وريادته، وأنّ اعتزاله المتكرر، لم يُنْسِ الناس جهاده الظافر فى إقامة الصرح الأدبى الحديث، وأن التاريخ لاينسى أقدار النابغين.

خطاب تال:

وبعد عدة أسابيع، وصلنى خطاب تالٍ من الشاعر الكبير يعلن أنّه قد ارتاح لما كتبت فى خطابى السالف، ويطلب أن أبحث له فى المنصورة عن دواء لايُوجد

بصيدليات الإسكندرية، وهو ضرورىٌّ بالنسبة إليه، وأرفق ثمن الدواء بالخطاب، وقد بادرتُ أبحث عمَّا طلب، فلم أجدْه بالمنصورة، وعز علىَّ ألاَّ أكونَ محققًا لرجائه، فبادرتُ إلى صيدليات الأقاليم المجاورة باحثاً مثابرًا، حتى عثرتُ عليه فى إحدى صيدليات مدينة (بلقاس) فأحضرْتُ كميّة كبيرةً منه، حذرًا من نفادها مع احتياج الشاعر إليها، ثم سافرتُ إلى الإسكندرية متَّجهًا إلى منزل صديقى الأستاذ نقولا يوسف، وأرْيتُه ما أحمل من الدواء، ففرح كثيرًا، وقال: إنّ الشاعر سَيُسَرُّ بلقائك لأنه لاينقطع عن ذكرك، وقد حان موعد رُؤْيته فهيَّا. وسعدتُ كثيرًا بزيارة الرجل الكبير، ولكنى كنت أتقطّع صامتًا لما لمسته من وطأة المرض الذى جَعله شبحًا لا إنسانًا، وحاولتُ أن أُسرع فى الذهاب مخافة أن يظهر على وجهى ما يدل على ألمى المبرّح فأزيدَ الرجل ألماً، فتعلَّلْتُ بانتظار أحد الأقرباء لى وفق موعد قد حان، وخرجت مع صديقى وأنا لا أملك نفسى من الحزن.

المقال الثالث:

وإيمانًا بما قاله صديقى نقولا من ارتياح الشاعر لما أكتب، حاولتُ أن أسرّه بمقال جديد، إذْ قرأتُ دراسةً جيدة عنه فى كتابٍ عن الأدب المعاصر للدكتور شوقى ضيف، ذهب فيه إلى أن نزعة التشاؤم تغلّبت على شعر شكرى، وعلّلَ هذه النزعة لدى شعراء التجديد بآراء استمدّها من استنتاجه الخاص، ومع تقديرى الكبير للدكتور شوقى ضيف، فقد رأيتُ أن أخالفه فى حكمه بغلبة التشاؤم على شعر الرجل، لأنّ نتاجه الأدبى يجمع التفاؤل إلى التشاؤم، والنفس الإنسانية لاتستقر على حالة واحدة، فبينما يسرّ الإنسان فى الصباح إذْ يدهمه فى المساء ما يُحزنه، فيقول الشعر فيما يسرّ ويسىء معًا، ثم استشهدت بقصائد كثيرة تنحُو منحى التفاؤل بجوار ما استشهد به الدكتور شوقى ضيف من قصائده التى تنحو منحى التشاؤم، وكتبتُ مقالاً تحت عنوان «شكرى بين التفاؤل والتشاؤم» بسطْتُ وجهة نظرى بما أملك من الدليل، وأرسلتُ به إلى الأستاذ شكرى بعد نشره، فردّ سريعًا يطلب كتاب الدكتور شوقى، وكان أخى الأستاذ سعيد الشرباصى متجهًا إلى الإسكندرية، فبعثتُ به معه، وقابل الأستاذ، فرحّب به ترحيبًا كبيرًا، ثم رأيتُ

الكتاب يجيء إلىّ بالبريد المسجل بعد أن قرأه الشاعر، وفى طيّه رسالة صغيرة يقول فيها: إن الدكتور شوقى مع تسجيله نزعة التشاؤم لدىّ، لم ينكر علىّ إيمانى بالمستقبل. وقد استمرت المراسلاتُ بينى وبين الشاعر الكبير، يكتبها بقلمه الأشل موجزةً مركزة، فأفرحُ بها كثيراً كثيراً، وقد كتبتُ إليه قائلا: إنّى لا أريد ردا، فأنا أعلمُ ظروفه الصحيّة، وكانَ مع ذلك يُسرع فى الرد المبادر، ولا سبيل إلى الامتناع عن مراسلته لأنه يطلبها، ويحثُّنى الأستاذ نقولا عليها، وكنتُ عرضت عليه أن أقوم بطبع بعض آثاره إذا استطعت، فأرسل إلىَّ تفويضًا كتابِيا بذلك.

ديوان شكرى:

انتقل شكرى إلى رحمة ربه، وتحدثت الصحف اليومية والأسبوعية عن مأساة اعتزاله، وإهمال القائمين على الثقافة لأمره، ودَعت إلى إحياء آثاره الأدبيّة التى طبعت منذ أكثر من ربع قرن، ولم يعرف عنها الجيل الحاضر شيئًا، ولكنَّ هذه الدعوة المخلصة ذهبت هباءً بدون استجابة، وهنا نهضَ أحد الموسرين من تلاميذ عبد الرحمٰن شكرى حين كان أستاذًا بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية، وهو الأستاذ عبد العزيز مخيُون، فصمّم على نشر ديوان شكرى إحياءً لذكراه، واتصل بالأستاذ نقولا يوسف لتحقيق هذا المأرب، وسارعَ نقولا بالاتصال بى، لأن معى تفويضًا من الشاعر بطبع ما أريد من مؤلفاته، وهذا ما يسهلُ نشر الديوان بدون صعوبات قانونية، وقد حضر الأستاذ نقولا لزيارتى بالمنصورة، واتفقَ معى على أن يقوم هو بجمع أجزاء الدواوين المتفرقة، وهى جميعُها لديه، تاركًا لى أن أقوم بجمع ما تفرق فى المجلاّت الأدبيّة من شعر لم يُنشرْ فى أجزاء الديوان، وهى مهمة من الصعوبة بمكان، لأنى أقيم بالمنصورة حينئذ، والدوريات الأدبية بالقاهرة، ولا سبيلَ إلى الذهاب للعاصمة إلا يوم الجمعة نظرًا لعملى الرسمى، ولم أشأ أن أنكل عن عمل أدبى أعدّه دَيْنًا فى عنقى للشاعر الكبير، فصمّمت على السفر المتواصل حتى جمعت ما أقدرنى الله عليه، وقَدَّمْتُه للأستاذ نقولا، فطلب منى مقدمة للديوان حدَّدَ حيّزها المتواضع، على أن يكتبَ هو مقدمةً تشمل حياة الشاعر وما يعرفه من اتصالاته وأخباره، فجاءت مقدمتُه ضافية واسعة، وعتبتُ

عليه أن حددَّ لى مساحةً متواضعة بحيث تضاءلت كلمتى جوار كلمته، ولكنّ هذا ماكان، ثم صدر الديوان وفى مقدمته إشارةٌ إلى ماقمتُ بجمعه من القصائد المتفرقة، ومن الاعتراف بالجميل لأصحابه أن أذكرَ أن أخى الاستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود قد استدركَ علىّ عدة قصائد جمعها فى كتاب خاص، كما استدركَ صديقى الأستاذ المحقق محمد محمود حمدان قصائد أخرى ما زال يحاول جمعها وهما يشكران على هذا، إذ أنّ ظروفى الضيقة لم تسْمح بأكثر مما قدمت، وهو جهد المقل، كما يقال فى المثل العربى، وقد ظهر الديوان رائعًا فخمًا، مطبوعًا على ورق مصقول، ذا حجم لافت للنظر، وبذلك تهيأ للدارسين أن يقولوا ما يشاءون فى تحليل روائع هذا الشاعر الكبير.

لقاء العقاد:

شاء الأستاذ عبد العزيز مخيون أن يُهدى للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عدّة نسخ من ديوان شكرى، لأنّه زميله فى النضال الأدبى، وقد كَتَبَ الأستاذ العقاد عند رحيل صديقه عدة مقالات قوية عن أثره الرائد فى التجديد الأدبى نَشَرها بالهلال، والشهر، ويوميات الأخبار، كما رثاه بقصيدةٍ حارة بالأخبار فور رحيله، قال فى مطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أودَى قرب الرحيل، لقد قارب جدّا

وإبراهيم هو إبراهيم عبد القادر المازنى، ثالث الرفقة، وقد أسهمُوا معًا فى تصحيح كثير من الآراء المخطئة فى حقل الأدب، وعُرفوا فى النقد المعاصر بأنهم أصحاب مدرسة الديوان، ولتفصيل ذلك مجال آخر، اتَّسَع به الحديث، وتعددت اتجاهاته ومراميه.

أجلْ، شاء الأستاذ مخيون أن يُهدى الديوان للأستاذ العقاد، فرأى أن يصحبنى مع الأستاذ نقولا لزيارة الشاعر الكبير فى ندوة الجمعة، وفُوجئَ العقاد بظهور الديوان فى سمته الرائع، فشكر الأستاذ مخيون على قيامه بطبع هذا الأثر

النفيس، وعدَّ ذلك مكرمةً نادرة، وخاصة فى حديث شكرى، سَارِدًا أعذب الذكريات عنه، ومشيرًا إلى ماجدّ من خلاف بينه وبين المازنى لم يلبْث أن انقشع، لأنّ المازنى قد ترضّى صاحبه، وعاد الود كما كان، لا كما يزعم من يحاولون تأريث العداء ظالمين.

وَخَرَجْنا من ندوة العقاد سعداء بلقائه، ثم وزّع الأستاذ مخيون عشراتٍ من الديوان على من يعرفهم من كبار الأدباء، فكثر الحديث عن شكرى، وتبوأ بديوانه الحافل مكانه الجهير..

* * *

الدكتور منصور فهمى

فى النصف الأول من القرن العشرين كان اسم الدكتور منصور فهمى يملأ الأندية الثقافية، ويشغل ذوى الفكر، إذ كانت جولاته الفكرية فى الصحف والمجلاّت متجاوبة الأصداء، وقد خاض نقاشًا متصلَ الحلقات مع نفر من ذوى الريادة الأدبيّة، فكان رأيه موضع التقدير والاحتفال، وحين كنتُ طالبًا بكلية اللّغة العربيّة قرأتُ إعلانًا بجريدة الأهرام عن مناقشة رسالة فلسفيّة بكلية أصول الدين، يرأس لجنتها الأستاذ الدكتور منصور فهمى باشا، رئيس جامعة الإسكندرية السّابق، فحرصت أن أحضر هذه المناقشة لأرى ذلك العملاق الذى قرأت له، وقرأت عنه، وأعرف كيف يدير النقاش العلمى فى محيط أزهرى، يشاهدُه لأول مرّة رئيسًا يوجّه المناقشة، ويقررّ الحكم.

وحين أزف الموعد هرعت إلى صالة المناقشة بكلية أصول الدين، فشهدت من الجموع المتزاحمة ما لا عهد لى به فى المناقشات الجامعية، كما وجدتُ فى الكلّية قُسساً من كبار رجال الدين المسيحى، ومجموعة من الآنسات والسيدات يحضرن لاستيعاب مناقشة فلسفية فى إحدى كليات الأزهر، وبعد لحظات صعدت لجنة المناقشة إلى المنصّة، يتقدمها الدكتور منصور فهمى، ومعه الأساتذة الدكاترة: محمد البهى، ومحمد غلاب، ومحمود حب الله، ومحمود الخضيرى، وهم من صفوة أساتذة الفلسفة فى مصر، وقد تخرجوا من الجامعات الأوربيّة، ونالوا أرقى شهاداتها عن استحقاق.

وكان المألوف أن يفتتح رئيس اللجنة المناقشة بكلمة يسيرة، يقدّم فيها الطالب،

ويشير إلى موضوع الرسالة، ولكنّ الدكتور منصور فهمى أفاض إفاضة شافية فى تقديمه، فذكر أن دائرة الفلسفة قد اتسعت فى مصر، إذ امتدت من الجامعة إلى الأزهر، وهذا ما لاغرابة فيه، فكتُبُ الفلسفة لها مكانتها عند الأزهريين، وشيخ الأزهر اليوم (يريد الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق وكان شيخ الأزهر حينئذ) هو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب لأكثر من عشر سنوات، وله بحوثه العميقة المتزنة، وطالبُ اليوم الأستاذ محمد فتح الله بدران يتقدم برسالة دقيقة حول كتاب «الملل والنحل» للشهر ستانى، ومعنى ذلك أن الأزهر فى عهده الحاضر قد لبّى روح الزمن، واتصل بالنهضة العلمية المعاصرة محافظًا على طابعه المنهجى، ومقدّرًا فى رحاب الفلسفة وجهات النظر المختلفة، ومصوّبًا ما يراه موضع التصويب، وستتبادل الجامعات فى مصر والخارج رسائله العلمية لتكون موضع الدراسة والتنويه، وفى هذا التلاقح الفكرى ما يدفع بركب الإنسانية إلى التقدّم، وقد حرص الإسلام على حُرية الفكر، ودعا إلى سبيل الله بالحكمة.

وامتدت كلمة الدكتور حول هذه المعانى فى هدوء تشع منه روح الفيلسوف، ثم تقدم الباحث فعرض موضوع الرسالة وما انتهى إليه من نتائج، وخاض لجج النقاش مع أساتذة كبار درسوا الرسالة، وعرضوا ما سنح لهم من الاعتراضات، فأجاب الطالب قدر استطاعته، وكان موفّقًا واعيًا، ورئيس الجلسة مصغٍ متيقظ، يسعف الطالب تارة، ويهمس فى آذان المناقشين تارة أخرى، ثم ختم المناقشة بكلمة مشجعة بعد أن أعلن فوز الرسالة بأرقى الدرجات العلمية، وانصرف الحاضرون وقد غنموا من المعارف ما جلّ قدره، وارتفع مستواه.

انصرفْتُ مع القوم، ولكنّ خاطرى لم ينصرف إلى أمد طويل عن التفكير فيما رأيت، ومن رأيت، وقد أكبرت الدكتور منصور فهمى إكبارًا يرتكز إلى رصيد سابق من المعرفة الفكرية، أيدته المشاهدة العلمية فى محفل جهير، أبان عن سماحة الرجل وهدوئه واتزانه، وسعة صدره لسماع مالايوافق عليه من الآراء، وتلك دروس فى الأخلاق العلمية والعملية يجب أن يلتفت إليها أهل العلم لينجوا من آفات الجدل، ومشاحنات اللّجاج.

ثم حانت ذكرى المولد النبوى الشريف، وأقامت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة حفلا جليلاً لهذه المناسبة، إذ قرأت فى الصحف أسماء من سيتحدثون، ومن بينهم الأستاذ الدكتور منصور فهمى، فنهضت لشهود الاحتفال فى موعده، واستمعت إلى ماقيل من شعر ونثر، وكانت كلمة الدكتور منصور فهمى موضع انتباه الحاضرين، لأنه قارن بين صاحب الذكرى العاطرة والمشاهير من المصلحين فى الغرب ليعلن قدر النبوة المصطفاة، فأضاف الجديد حقاً، على حين اكتفى بعض المتحدثين بترداد ماهو مشتهر معروف، وكان من حظّى أن أجد صديقى الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصى يدعونى إلى مجلس بالجمعيّة يحضره صفوة القوم، فسعدت بأن جلست جوار الدكتور منصور فهمى، فابتدأ مشكورًا بتحيتى، والسؤال عنى، وكأنه أحسّ احتشامى وهيبتى، فشجعنى على الحديث متفضّلا. وأخذ القوم يتفرقون تباعًا، والرجل يُلاطفنى بحديثه عن فيض وترحاب، وقد قلتُ له: إنّى سعدت بحضور المناقشة التى رأسها بكلية أصول الدين، فابتسم الرجل ثم فاجأنى بما لم أتوقع حيث قال: إنّه ما تهيب مناقشة رسالة كما تهيّب مناقشة هذه الرسالة، لأنه كان يخشى أن يحدث لجاج أو غضب من بعض الذين يضيقون بالبحث الفلسفى، وله سابقة مثيرة فى هذا المجال، إذ كان رئيسًا للجنة مُناقشة الدكتوراه التى تقدّم بها الدكتور زكى مبارك عن أخلاق الغزالى بقسم الفلسفة فى كلية الآداب، وقد حضر المناقشة فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد اللبان، بعض علماء الأزهر، وقد تعرّض الطالب لأخطاء وقع فيها الإمام الغزالى، وهذا مالا غُبَارَ عليه، لأن لكلّ عالم مهما ارتفعت مكانته أخطاؤه، بجانب إصاباته الكثيرة، كما أنّ طالب الدكتوراه لايزال باحثًا ناشئًا، ومن الطبيعى أن يخطئ وأن يصيب.

ويظهر أن نزوة الشباب فى كيان الدكتور مبارك حملته على الاندفاع فى الهجوم، فثار الشيخ اللبان، وواجه الطالب بأسئلة محرجة، وليس من حقه القانونى أن يتدخل فى النقاش، إذ ليس من أعضاء اللجنة، ولكنى راعيت مقام الشيخ الجليل فسمحتُ له أن يسأل، وطلبت من الدارس أن يجيب، فردّ بما زاد

النار اشتعالا، وحاول شيوخ آخرون أن يتدخلوا بالسؤال وطلب الإجابة، فقلت: إن السؤال قانونًا من حق أعضاء اللجنة، وكان الدكتور طه حسين بين الحاضرين، وليس من أعضاء اللجنة، فتقدّم بعدة أسئلة للطالب، ولم أجد ما يمنع من قبول أسئلته، لأنه أستاذ بالكلية، والطالب من تلاميذه، وكان الدكتور يتعمد إحراج زكى مبارك، فقابل أسئلته بتسرّع غير حميد، واشتط فى نقد الغزالى، وكأنه من وجهة نظره فى مستواه العلمى، وطبيعى أن يثور الحاضرون لمسلك الطالب، فرأيت أن أحسم الموضوع، وقلتُ فى صراحة، إن الطالب يواجه الامتحان، وإن من شأنه أن يخطىء ويصيب، واللجنة ترصد كل ما يجيب به، وترى أنّها لاتُسأل عن النتائج التى قررّها الباحث، فهو المسئول عنها، ولكنّها فى الوقت نفسه تعلن أنّها حين تقدر الطالب لاتقف عند النتائج فقط، بل تنظر فى منهجه العلمى، وطرق الاستدلال، ووسائل الاستنتاج، لتطمئن على معدنه وأصالته، أما الخطأ والصواب فمتوقعان.

وقد ارتاح الأستاذان محمد أحمد جاد المولى، وعبد الوهاب النجار ـ وهما من أعضاء لجنة المناقشة ـ لما أبديت، ولكنّ الشيخ النجار كان أرحم بالطالب وأرفق، فصاح بالحاضرين، إننا جميعًا نبجل الإمام الغزالى ونقدره، والطالب كذلك يضعه موضع التقدير، ولولا ذلك ما خصّه برسالة علمية أخذت عدة سنوات من عمره الدراسىّ، وانتهزت كلام الأستاذ النجار رحمه اللّه، فقلتُ، إن الشيخ أصاب موقع الحق، وأضيف إليه أن عيب الدارس أنه نظر إلى الغزالى بمقياس عصرنا الحاضر، وهذا خطأ، لأننا نحاكم كلّ مؤلف بمقاييس عصره التى انتهى إليها فى زمنه الغابر، بدون أن ننكر سابق فضله، ورصين عقله! فإذا كشفت العصور المتتابعة عن أخطاء لم يهتد إليها من قبل، فحسبه أنه كان مبرّزًا فى عهده، وقلت إن تقدّم البحوث الطبيّة فى العصر الحاضر لايجعلنا ننكر ما قام به أطباء العصور الماضية من جهود ـ مهما كانت متواضعة ـ بجوار الفتوح العلمية الحديثة، وكذلك الأمر مع الإمام الغزالى. وانتهت المناقشة بدون أن يهدأ الحوار فقد انتقل إلى الصحف، وكتب فيه الشيخ الدجوى، والشيخ أحمد مكى، ولم أسلم ممّا قالا،

لذلك توجست خيفة قبل النقاش فى كلية أصول الدين، ولكن، الحمد للّه، فقد كانت الريح رخاءً بل كانت نسيمًا عاطرًا.

انتهت الجلسة الطيبة، وخرجت من جمعية الشبان المسلمين وأنا أتوق لمثلها، حيث أفدت كثيرًا من هذه النظرات الصائبة، وذاك التدفق فى التعبير على وجه سمح لاانقطاع لرافده، وكأن غديرا يترقرق من حديث الدكتور، وكأن الله عز وجل قد شاء ألاّ يحرمنى هذا الثمر الناضج من الحديث الجذاب، إذ ذهبت ذات ضحى إلى دار الهلال بالمنيرة لأقدم مقالاً أدبيّاً إلى الأستاذ الكبير طاهر الطناحى، مدير تحرير مجلّة الهلال فى أحد عهودها الزاهرة، فوجدت الدكتور منصور فهمى بمكتبه، فسلّمت عليه فى أدب، وتهيبت أن أبدأه الحديث، ولكنه قال فى لطف: إنه يذكر لقائى معه، ولكنه لايدرى أين كان، فقلت له: هما لقاءان لالقاء، وحدثته عن سعادتى التامة برؤيته التى أعتبرها مغنمًا فكريا جزيلا، فانبسطت أساريره، وتألق الابتسام فى ثنيته، فوجدت الفرصة سانحة لأن أقول له: عندى سؤال ياسيدى يتعلق بك، ولن أجد جوابًا عليه من غيرك، فقال: أهو سؤال طارئ أم سؤال تدّخره من قبل؟ فقلت: يعلم الله أنى أدَّخره من سنوات، فقال، ولم لم تكتبْ إلىّ به، فسكت متطلّعًا، فقال: هلم، قلت: إنى أقرأ على مدى ربع قرن بحوثًا ومقالات أدبية لك فى مجلات الهلال، والمجمع، والمصوّر، والمعرفة، وغيرها من كبريات المجلاّت العربيّة الرصينة، وكنت أنتظر أن تقوم بجمعها فى كتب مستقلة كما يفعل العقاد، وطه حسين، وأحمد أمين، كما أعرف أنك تُدرّس للطلاب مادة الفلسفة منذ أكثر من عشرين عامًا، ولم تشأ أن تخرج كتابًا للناس يجمع خلاصة هذه الدروس كما يفعل تلاميذك الذين تخرجوا على يديك ثم صاروا زملاء بقسم الفلسفة فى كلية الآداب؟

نظر الدكتور إلىّ وفى وجهه حيرة عرفتها من ملامحه، ثم قال: إنهما سؤالان لاسؤال، سؤال يتعلق بمقالات المجلات، وسؤال يتعلق بدروس الفلسفة بالجامعة، أما ما يختص بمقالات الصحف فأصارحك أنى بعد أن أنشر المقال أجد فيه كثيرًا من نواحى النقص، فأشيح عنه، وقد قمت بنشر بعض الخوالج النفسية التى

ظهرت فى جريدة الأهرام ما بين العشرينيات والثلاثينيات فى مجموعة تحت عنوان (خواطر نفس)، فصادفت ارتياحَ الناقدين، وتلقيت عنها عشرات الرسائل المشجعة، ولكن لا أدرى لماذا حين أعاود قراءتها أجد بها من الاقتضاب تارة، ومن الخلل تارة أخرى مايجعلنى أعتقد أنى تسرعت فى نشرها، وقد هممتُ فى أحيان كثيرة أن أجمع مقالات الهلال وحدها وهى تكفى لملء خمسمائة صفحة، فكنتُ أجمع الأعداد وأعيد قراءة ماكتبت فأحسّ بفتور يضعف من عزيمتى، أما مقالات مجلة المجمع فهى مستريحة فى أماكنها الأمينة، لأنّها للخاصة، والخاصّة وحدهم، وهم يحرصون على كل عدد يظهر من هذه المجلة الرّصينة، هذا عن السؤال الأول، أمَّا السؤال الثانى عن دروس الفلسفة بكلية الآداب، فالأصل فى التعليم الجامعى أن يكون للمادة عدة مراجع قديمة وحديثة يُنّبه إليها الأستاذ طلاّبه فيسعون إلى دراستها، ثم يكتبون الخلاصة الدقيقة بعد الائتناس بما قاله الأستاذ فى محاضراته بالكلية! هذا هو الأصل المنطقى، ولكنّ بعض الأساتذة يوفّر على الطلاب عناء البحث، ويقوم هو بطبع ما يقوله. وتوزيعه على الطلاب، وفى أحيان كثيرة تقوم دار من دور النشر الكبيرة، فتطبع الكتاب وتوزّعه على الطلاب وعلى غيرهم من جمهرة القراء. وبالنسبة لدروس الفلسفة بالذات فإنى أتساءل: هل يقدّم مثلى أو أحدٌ من زملائى جديداً يباهى به، ويقدّمه مطبوعًا للقارىء؟ إنّ الذى نقوله فى هذا المجال هو مَقرراتٌ مشتهرة يعرفها دارسو الفلسفة فى كليات الغرب، وإذا كانت هناك زيادة مَّا، فهى تعقيب أو توضيح أو تفصيل أو اختصار، فقُل لى بربك: ماذا يُنسَبُ لأستاذ الفلسفة من الفكر حين يكون عالةً على سواه فى كُلية مبتدئة، وأقولُ مبتدئة بدون خجل، لأن الدراسة الجامعّية عندنا فى دور الطفولة بالنسبة لدراسة الفلسفة فى كليات أوربا، مع استثناء دراسة الفلسفة الإسلامية، فقد استطاع الأستاذ الأكبر مصطفى عبد الرازق رحمه الله أيام كان أستاذ المادة بالكلية أن ينقلها من حّيز إلى حيز، فأضاف إليها ما ابتكره علماء الإسلام فى علمى الأصول والكلام!

ثم سكت الدكتور قليلا ليقول بعد ذلك: أنا الآن أُدَرِّسُ لخمسة طلاّب فحسب فى السنة الثانية بالدراسات العليا، ومهمّتى أنْ أحدّد الموضوع، وألخص ما قيل

فيه، ثم أذكر مراجعه فى الفرنسيّة، وأدعو كلّ طالب أن يبحث هذه المراجع، ويكتب عنها ماناقشهُ فى الدّرس الأسبوعى على مدى العام، والمشكلة أمامنا مشكلة «الاصطلاحات»، إذ تُوجد فى الكتب الأوربية «اصطلاحات» لانعرف مطابقها فى الكتب العربية، وفى مجمع اللغة بمصر لجان تبحث هذه المصطلحات فى الفلسفة وفى غيرها من العلوم، وستؤتى ثمارها بعد حين..

جاء دورى فى الكلام، فقلتُ: إنّ أبوابًا كثيرة من التفكير قد فُتّحت أمامى حين شرفتُ باستماع حديثك، على أنى أقول: إنّ ما قرأتُه فى مجلة الهلال بقلمك الرصين يُضارع ما يكتبُه كبار الأدباء فى العالم الغربى، فإذا كنتَ تلاحظُ بعض النقص، فلاشكّ أنَّ أمثال العقاد، وأحمد أمين، وطه حسين، يلحظون فى مقالاتهم ما تلحظ من استدراك، ولكنهّم يجمعون ما نَشروه حِرصًا على مافيه من نفع جزيل، فإذا قامَ الدكتور منصور فهمى بجمع مقالاته كما عزم ذات يوم، فإنّه سيفيد القارىء العربى، ثم قلتُ: وإذا كنتُ ياسيدى قد أفدتُ من حديثك العَفْوى الآن ما يتعذر أن أجدَهُ لدى كاتب آخر، أتكونُ مقالاتكُ ذات التفكير المُتَّئد خاليةً من الصائب السديد؟!

تشعّب بنا الحديث طرائق مختلفة، ثم حانَ الافتراق، ولكنْ إلى لقاءات أُخْرى ذات أرجٍ بهيج.

* * *

الأستاذ أحمد حسن الزيات

تربعت «الرسالة» على عرش الصحافة الأدبيّة بالعالم العربى فترة طويلة، حيث كان الأستاذ أحمد حسن الزيات يجمع الصفوة من كبار الأدباه ليطالعوا القراء بأحدث ما يكتبون، وقد تشتعل المعارك القلمية بين هؤلاء الصفوة فيتزاحم المثقفون فى قراءة الرسالة فى شوق، وتترك هذه المعارك الأدبية من الدوىّ بين المثقفين، أضعاف ما تتركه المعارك السياسية فى الصحف اليومية، لأن قراء الرسالة فى كثرتهم الغالبة على وعى يقظ لما يدور من الأفكار، وقد ظهرت «الثقافة» لتنافس الرسالة، وهى لسانُ لجنة التأليف والترجمة والنشر، وأعضاؤها هم الذين أسهموا فى بناء الرسالة، وساعدُوا على ذيوعها، وكان المنتظر أن ينخفض مستوى الرسالة بمنافسة الصحيفة الجديدة، ولكن الأستاذ الزيات جذب إلى مجلته أعلام الفكر فى العالم العربى، مع من بقى معه ممن آثروا الرسالة بالعون الصادق، فكانَ جهد «الثقافة» أنْ تلاحق «الرسالة» فى خطوها الفسيح، وقد نشأت مولعًا بهذه المجلة الرائدة، لأنّ أساتذة المعاهد الدينيّة بالأزهر كانوا من أنصارها عن إخلاص متحمّس، ولأن أسلوبها البيانى قريب مما يحبون من أساليب السلف، وللأستاذ الزيات بلاغته المبدعة، إذ كان مقاله الافتتاحىّ يشبه الشعر المنثور فى صفاء معدنه، وجودة تصويره، هذا إلى اهتمامه، بالذكريات الإسلامية، ومواقف البطولة فى التاريخ العربى، واختياره أنفس ما يذاع من الآثار الأدبيّة فى هذا المجال،

اتصالى بالرسالة:

وكنت أتهيب الكتابة إلى الرسالة، وأنا فى عهد الطلب، وأرى أن مستواها

الرفيع وَقْف على ذوى الدُّرْبَة من التمرّسين، ثمّ جاءَ شهر رمضان فكتبتُ مقالاً تحت عنوان (رمضان عند الأدباء)، متّحدثًا عن الصلة المفقودة بين فريق من الشعراء والكتّاب، والشهر الكريم، ومستشهدًا بطرائف مما قيل فى هذا المجال، وهتفَ به أمثال البحترى، وابن الرومى، وبديع الزمان الهمذانى، وابن الراوندى، وبعثتُ المقال للرسالة، فنشرهُ الزيات سريعًا قبل أن تضيع مناسبته، وكان المقالُ ذا حجم كبير، فلم تضقْ به الرسالة، ولم تحاول أن تختصر منه شيئًا! وكان ابتهاجى كبيرًا بنشر المقال، إذ جعل لدّى من الثقة ما دفعنى إلى مواصلة الكتابة بدون انقطاع.

ومما أذكرُه عن مقالاتى الأولى بالرسالة أنّى كتبتُ بحثًا تحت عنوان (من أخلاق البحترى) فى ثلاث حلقات، وبعثتُ به إلى الرسالة، ومعه «ظرفٌ» عليه عنوانى الخاص، ليتفضّل الأستاذ الزيات بإخبارى عن وصول البحث، ولم يضنّ الأستاذ بالمراسلة، بل كتبَ يقول، إنّ فى بعض التعليقات ما يخرجُ من النقد إلى الهجاء، لذلك يرى أن أختصرَ المقالات إلى اثنتين، وأنْ أحذف العبارات القارصة التى تُسىء إلى البحث، مكتفيًا بذكر الحوادث المُجَرَّدَة، فهى تُغنى عن التعقيب المسىء! وقد استجبتُ إلى ما قال الزيات، وحررتُ البحث من جديد، فتفضل بنشره، ثم بادرتُ بإرسال مقال آخر تحت عنوان (عمر بن الخطاب الأديب) وحملتهُ بنفسى للرسالة، وكانت فرصةً طيبه للقاء الأستاذ، وكان مكتبهُ حينئذ خالياً من الزوار، فطلب منى أن أقرأ البحث، فَارْتَضَاهُ ووعد بنشره، ولكنى قلت له: إننى لم أُسرف فى التعليق على الشواهد، عملاً بما نصحنى به الأستاذ من قبل، فقالَ لى الزيات: هُنا موضع الخطأ، لأنّ التعليق على آراء الفاروق الصائبة مدعاةُ ارتياح، وليسَ كالتعليق على انتهازيّة البحترى ووصوليته، وإن مقصدى من توجيهى السابق، أنْ ترتفع عن الهجاء، وتُقدّم ما يدعو إليه، تاركًا للقارىء أن يكمل ما تريد! وقد سعدت بملاحظة الكاتب الكبير، وحاولت التقيّد بها فيما سأكتب.

الحكم بالكفر:

توالتْ مقالاتى وقصائدى بالرسالة، وقد كتبتُ بحثًا (عن المرأة فى شعر

الرصافى) ذكرتُ فيه بعض ماقال الشاعر، وكان من بين ما قال (مظلومةٌ حتى بميراثها) ونُشر البحث فى حينه، ثم ذهبت بعد قرابة نصف عام من نشره إلى زيارة الأستاذ، فوجدتُه يبتسم قائلاً (سأدخل معك النار يا رجب) فدهشتُ لما قال الزيات، ورأى الحيرة فى وجهى، فقال إنّ شيخ الإسلام فى تركيا العلامة الكبير (مصطفى صبرى) أصدر كتابا تحت عنوان (موقف العلم والعالم من الدين) وذكر فى الجزء الثانى منه أنّ مقال الرصافى يكفر كاتبه وناشره، وإذا حكم شيخ الإسلام فى دولة الخلافة بكفرنا، فالويل لنا.

سكتّ ولا أدرى بماذا أجيب، ولكنّ الرجل طلب لى فنجانًا من الشاى لأهدأ، وقال لقد امتُحنت بشيخ الإسلام مصطفى صبرى، ووكيل المشيخة زاهد الكوثرى، حيث واصلاَ الحملات على الرسالة فى تشنج لا أدرى مأتاه، وقد بَدَا شَرُّ هذين يوم أن نشرتِ الرسالة مقالاً للأستاذ محمود شلتوت عن نزول عيسى، إذ اتجه الشيخ المدّقق إلىَ عدم وجود نص صريح فى هذا النزول، وأدلَى بالحجج الدامغة، وهو من كبار المجتهدين فى عصره، ولكنَّ الشيخيْن هبّا هبّة الثائر المحنق، وظّلتْ صحفُ العوام تنضح بأهاجى الرسالة وصاحبها، وتعُّدها لسانًا من لسان التبشير، ورأيتُ أن أبتسم بدل أن أغضب، وكانَ فى مقدرة أحدهما أن يُرسل ردا موضوعيًا للرسالة، فأسارعُ بنشره عَرْضًا لوجهة نظرٍ مقابلة! ولكنهّما لم يردّا إلاَّ بالسباب والشتائم، وهما يعلمان أن الرسالة ليست مجالاً للأوْضار والأقذار، فأخذا يشتمان من بعيد! ولنا الله.

قلت إن الذّى يهاجم شلتوت والزيات من السهل عليه أن يقول عنى مايشاء! فقال الأستاذ: لقد هاجما الأفغانى، ومحمد عبده، والمراغى، ورشيد رضا، ومحمد فريد وجدى، ومحمد حسين هيكل، ومن لا أحصى، ومن الإنصاف للزيات أن أقول إن الرسالة قد نَعت الشيخ الكوثرى بعدَ وفاته، فنشرتْ مابعثه أحد الفضلاء فى رثائه، وعَدَدْتُ ذلكَ سموا فى أخلاق الرجل، وترفعًا منه عن الصغائر والأضغان.

فى المنصورة:

المنصورة عاصمة الدقهلية، وقد اعتاد صاحب «الرسالة» أن يمضى بها شهور

الصيف، متخّذا مجلسه تحت ظلال شجرة مورقة، كتبَ عنها عدّة مقالات تحت عنوان فى ظلال الكافورة، وفى مجلسه هذا يفرغ إلى قراءة بريد الرسالة على شاطئ النهر، وكانَ من عادته أن يَرمى بالمقال التافه ليذهبَ مع التيار الصاخب. وأذكُر أن الأستاذ عباس خضر قد كتبَ يقول: إذا كانَ نهر دجلة بالعراق قد أغرقَ مكتبة بغداد حين قذف التتار بمجلداتها إلى النهر، فإنّ نهر النيل قد شارك أخاه، حين رمى الزيات بمئات القصائد والبحوث فى موجه المتدافع، والقياس مع الفارق طبعًا، لأن الزيات لم يكن يرمى غير الركيك التافه، ولكنّها طُرفة تُسجّل.

وكم حَوَى مجلس الزيات فى ظلال الكافورة من طرائف نادرة، إذ كان أدباء المنصورة ينتهزون فرصة وجوده لِيَسْعَدُوا بحديثه، وأذكر أنَّ أحد الشعراء من مدرسى المدارس الثانوية، حاول أن ينشر قصيدة بالرسالة، وتشفّع بالأستاذ محمود البشبيشى، وهو صديق الزيات، ومن كتّاب الرسالة الأفاضل، فحددّ له البشبيشى موعدًا للقاء الأستاذ بمجلسه، وجاء الشاعر، فطلب منه الزيات أن يقرأ القصيدة فبدأ قائلاً:

عرضتْ علىّ جمالها وعقارها بتلهّفٍ فأبيتُ أنْ أختارها

فلم يتمالك الزيات أن قال للشاعر قاطعًا قوله: لا أرىَ فيك ماتستحق به أن يُعرضَ عليك الجمال والعقار؟ وهب أن ذلك قد كانَ، فلاينبغى أن يُسَجل، لأنّ الشاعر المتصّون لايجيز أن يجعل صاحبته طالبة راغبة، وهى فى الأصل الطبيعى مطلوبة مرغوبة، لقد عيبَ على ابن أبى ربيعة أن يتباهى بصويحباته، وعده النقاد مبالغًا متخيّلا، فقال الأستاذ البشبيشى: وإذا كان ذلكَ حقيقة واقعة، فَلِمَ لايُقال؟ فابتسمَ الزيات قائلا: أشكُّ فى أنه حقيقة مع ابن أبى ربيعة، وأجزمُ أنه ادّعاء مع صديقنا هذا، ثم واصل الشاعر قراءته فجاء ببيت مكسور، وكانت فرصة للزيات يتعلّل بها فى إهمال القصيدة.

ومما أذكره من طرائف هذا المجلس، أنّ الشاعر الفكه الأستاذ طاهر أبو فاشا كان يأخذ مجلسه المرح جوار الزيات، ويفيض بما عُهِدَ عنه من الطرائف والأفَاكِيه،

وحانَ موعد الغداء، وكان من عادة الزيات أن يأتيه إلى مجلسه من المطعم القريب، فدعاه الزيات إلى مشاركته، ولكنه قال إنه على وعد مع الأستاذ على متولى صلاح أن يتناول معه «الطعمية» فى الغداء، فقال الزيات على البديهة: (الكعكة اللّذاعة، تؤكل فى جماعة) وقام طاهر لينقل إلى صاحبه ما قاله الزيات، فارتبك الرجل، وقال: إن الزيات لايأكل الطعمية، ولكنّه يريد ما فوقها! وفوجئ الأستاذ بطاهر وعلى متولى يحملان أطباق الكباب وما يتعلّقُ به إلى مجلسه، ولم يكنْ تناولَ الغداء بعد، فقال لطاهر: ماذا صنعت؟ فقال إنّ على متولى دفع الثمن اليسير وقمتُ أنا (بالمشال) فأيهمّا أكثر عناءً: الذى دفع عدة قرُوش، أم الذّى تصبب عرقًا حتى كاد يموت؟ قال الزيات: وأيْن الكعكة اللذاعة؟ فقال طاهر لم نُرد أن نأكل فى جماعة!

قصيدة وعتاب:

أرسلتُ إلى مجلة الرسالة قصيدةً تحت عنوان (الموت يتكلّم)، ومضى نصف عام بدون أن تنشر القصيدة، فبعثتُ بها إلى مجلة الثقافة فنُشرت بعد أسبوعين، ثم فوجئتُ بعد قرابة شهرين بنشر قصيدتى بمجلة الرسالة، ولم أكن أتوقع ذلك وأرْسَلَ بعضُ القراء تعليقًا للرسالة يقول إنها تنشرُ المُعَادَ المكرّر، إذ أن قصيدة (الموت يتكلم) قد نُشرت من قبل بالثقافة، وذكر التاريخ ورقم العدد، وكنتُ غافلاً عمَّا كان، فلم أكد أقابل الزيات حتى صاح بى: ماهذا؟ أتبعث لى بقصيدة منشورة بالثقافة؟ قلت: ياسيّدى، أنا معذورٌ جدا فيما كان، فقد أرسلتُ القصيدة إليكم منذ ثمانية أشهر، ثم ظننتُ أنها لم تحز قبولكم؛ إذ أبطأ نشرها هذا الإبطاء، فبعثتُ بها إلى الثقافة فنشرتها على الفور، وفوجئت بها من بعد فى الرسالة، فوقعت فى أشد الحيرة فماذا أصنع؟ فبدا على وجه الأستاذ ما يدلّ على أنه قبل العذر، ثم قال: لاتعجب إذا تأخر نشر القصّة أو القصيدة لعامٍ بالرسالة، لأنها تتلقّى كل أسبوع سيلاً من القصص والقصائد وهى لاتتسع لأكثر من قصّة وقصيدتين فى العدد الواحد، لأن المقالَ والبحث هما اللذان يشغلان أكثر الصفحات، وقد تركتُ قصيدتك مع أخواتٍ كثيرات حتى وقعتْ فى يدى مصادفة

فنشرتها، وكان علَيكَ أن تُخبرنى بنشرها فأعرف، قلت: لن أبعث بما أرسله للرسالة إلى مجلة أخرى مهما امتد الزمن، فقال الرجل فى تشجيع: ولن يمتد.

فى مجلة الأزهر:

اختير الأستاذ الزيات رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، وتهيبّه كتابُ المجلة المعتادون، فلم يرُسلوا إليه مقالاتهم، واضطّر الأستاذ إلى الاستعانة بمن يَعرف من كبار الأدباء ذوى النزعة الإسلامية فظهرت المجّلة تحمُل أسماء كتاب الرسالة، وكانتْ موضع ملاحظة لدى الكثيرين، فأرسلَ الأستاذ عبد الله أمين خطابًا يتساءل عن الظاهرة؟ فأين كُتَّاب الأزهر وعلماؤه؟ مع أن المجلّة تنطق بأسمائهم؟ وأجاب الأستاذ قائلاً: لقد راسلنا أصحاب الفضيلة العلماء، فلم يُلبِّ الدعوة غير عالمين فحسب! فإمّا أن تظهر المجلة بيضاء، ولاسبيلَ إلى ذلك، وإما أنْ أكتبها جميعها وهذا مالايُطاق، وإمّا أن أستعين بمن أعرف، وهذا مافعلت! ثم استعانَ بتأثير الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر، فتوافدت مقالات الأساتذة من كتّاب الأزهر تباعًا.

وقد حَدث أمر شاذ قابله الأستاذ بمكتبه، إذ وفد لزيارته بعضُ المتطفلين على الكتابة الدينيّة بدون علمٍ أو أمانة، وأخذ يخوضُ فى أمور لايدرى عنها شيئًا، ثم تعّرضَ لسيرة رسول الله ﷺ بما يدلُّ على سوء الأدب، وكانَ الأستاذ على العمارى يجلسُ فى مواجهته، والزيات أمامهما فى مكتبه، فما كاد هذا المتحدث ينطق بكلمته النابية حتى نهض العمارى، وضربه بكفّه على وجهه ضربةً جعلته يسقط على الأرض، ففزع الزيات وارتمى بجسده كله على الرجل المضروب ليعوق العمارى عن مواصلة الضرب، وانتهى الأمر بتحقيقٍ ذى أخذ وردّ، والطريف أنّ بعض أصدقاء الزيات قال له: لماذا دافعتَ عن المضروب وقد أساء لسيرة رسول الله؟ فقال الزيات: كلاّ، أنا لم أدافع إلاّ عن العمّارى، لأنّه فى حماسته وشبابه سيقتلُ الرجل إذا واصلَ الضرب، وهنا يتعّرض للقصاص، فأردتُ أن أحميه من خطرٍ يتهدّده، وانتشرتْ إجابة الزيات، فكانت طرفة!

ومن أعجب مالاقاه الزيات أثناء رياسته لتحرير مجلة الأزهر أن أحدالعلماء ممن

سارت لهم شهرة فى الكتابة ذهب إلى مكتبه، وقال له: أنا أحق برئاسةتحرير مجلة الأزهر؛ لأنّى أستاذٌ كبير بإحدى الكليات، ولى مؤلفات ذائعة، ومقالاتٌ مستفيضة، فقال الزيات فى هدوء: لقد أنقذْتَنى يا أخى، أنا أرجو فضيلة شيخ الأزهر منذ شهور كى يعفينى من هذا العبء، وهو لايقبل، فاذهب إليه، وقلْ له: إنّ الزيات مستقيل وأنا أريد أن أخلفه، وطار الرجل إلى الشيخ شلتوت، وكانَ إمامَ الأزهر حينئذ، فأخبره بما كان، فتعجب الإمام الأكبر من تَطاول الشيخ، ولكنه قال له: إذا استقال الزيات فلابد أن نعرض كتّاب الأزهر جميعاً، لنختار من يليق، وفيهمْ من يرجحك فى هذا المجال، إذْ لستَ وحدك، وأرى من الأوفق أن تعتذر للزيات فهو متفضّلٌ على المجلة، ولم يكنْ يريدها، لولا الإلحاح الشديد!

وظلّ الأستاذ قائمًا على تحرير مجلة الأزهر، حتى لقى ربه، فبكاه تلاميذه الكثيرون، وظهرت كتب خاصة بأدبه وتأثيره فى المحيط الثقافى، لأنّ دوره الكبير حفظ له مكانه بين أعلام العصر الحديث.

* * *

العلاّمة الأديب المجَرِىّ
عبد الكريم جرمانوس

كان أستاذنا الدكتور إبراهيم محمد نجا يدرس لنا فقه اللّغة بكلية اللغة العربية، وكان يستشهد كثيرًا بآراء صديقه العالم الأديب المجرى الأشهر الدكتور عبد الكريم جرمانوس، ويقول: إنه حظى بزمالته أيام كان يتردّد على كلية اللغة طالبًا زائرًا، ثمّ امتدّت علاقته به، حتى صار يُذاكرُ معه دروسه الأزهرية فى النحو والصرف والبيان فى أوقات كثيرة من أيام الأسبوع، ولم يذكر عنه أنّه كان يتردّد على حلقات القسم العام بالجامع الأزهر أيامَ كانتْ هذه الحلقات تضمّ (الطّلَبة) الغرباء من شتى بقاع العالم الإسلامى، وقد لَفَتَ نظرَهُ أن الدارس المجتهد «جرمانوس» أخَذَ يستمع إلى الدرس الواحد ذى الموضوع الواحد فى النّحو والبلاغة من عِدّة مدرّسين، مع أنّ الأصل أنْ يعكفَ الطالب فى المادة الواحدة على أستاذ واحد، كيلا يتبدّد وقتُه هباءً، ولكنّ جرمانوس شرحَ وجهه نظره، وهى أنّه يقارنُ بينَ مايسمعُ ومَن يسمع فى الجانبيْن ليعرفَ أوجهَ الزيادة والحذف، وبهذه المقارنة تثبتُ المادّة.

هذا ما قاله الدكتور «نجا» عن «جرمانوس»، وفيه مايدلّ على أن الطالب لم يأتِ للأزهر ليفهم فقط، بل لينقدَ ويرجّح، مهما كانت المادةُ العلميةُ جديدةً عليه، وهى روحٌ علمية عالية لاتُتاح لغير النوابغ. ثم مضت الأيام، وأخذتْ مقالاتُ الدكتور «جرمانوس» تُنشَر فى المجلاّت العربية الراقية، وأخذ العلماء يتحدّثون عنه عالماً يدرسُ أكثر من سبع لغاتٍ شرقية وغربية دراسةً متمكنةً، بحيث يستطيع أن

يُحاضر ويؤلّف بكلٍّ منها فى سهولة، وإذا كانت كلّ لغةٍ من هذه اللغات تحفل بالمؤلفات والأعلام والآراء والمذاهب، فإنّ عقليّة «جرمانوس» قد اتسعتْ لفيضٍ زاخرٍ من نتاج الفكر الإنسانى لايُتاح إلا لأفراد، ولا أدرى لماذا كنت مشغوفًا بالرجل منذ حدّثنا عنه أستاذنا الدكتور إبراهيم نجا، حتى أذن الله، فتوثّقتْ صلتى الشخصيّة به، ولكن كيف؟

أبو العلاء وابن شهيد:

كنتُ نشرتُ بحثًا بمجلة الأديب اللبنانية عن الصلة بين رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسىّ، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعرىّ، وقد انتهيتُ إلى أنّ ابن شهيد هو الذى أثرّ فى أبى العلاء على عكس مايرى الكثيرون، وقدّمت من الأدلة المنطقية ما يؤيدّ هذا الاتجاه مستندًا إلى نصوص من رسالة التوابع والزوابع تأكّدَ وصولُها إلى أبى العلاء قبل أن ينشئ رسالة الغفران، وما كاد البحثُ ينتهى إلى يد الدكتور جرمانوس، حتى بادرنى بخطاب طويل يؤيّد وجهة نظرى، ويعترفُ أنها عدّلت من رأيه كثيرًا فى ضوء ما قدّمتُ من الأدلّة، وقد فرحتُ بخطاب جرمانوس لأنّه زاد من ثقتى فى نتيجة البحث المشار إليه، كما فتح لى بابَ التعرف إليه، وقد كتبتُ عنه مقالاً بمجلة الحج السعودية يُعلن تقديرى لمواهبه، ويعرف برحلته إلى الحجاز التى نشر بعضَ فصولها بالعربيّة فى مجلة الرسالة، وقد تفضّلَ الأستاذ وديع فلسطين فسارعَ بإرسال مقالى إلى جرمانوس بجامعة بُودابست بالمجر حيث يعملُ أستاذًا للحضارة الإسلامية والتاريخ العربىّ بهذه الجامعة، فأسرع «جرمانوس» بمراسلتى شاكرًا ماكتبتُ عنه.

فى القاهرة:

ثم انعقَد بعد ذلك مؤتمرُ مجمع اللغة العربية بالقاهرة، فدُعِى إليه الدكتور جرمانوس؛ لأنه عضوٌ مراسل بالمجمع، وتلقيتُ برقّيةً منه يُعلنُ فيها وجودَه بفندق سميراميس مع السيّدة زوجته، وأنه يَودُّ لِقائى، وسرعانَ ما نشطتُ إلى زيارته، وامتدّ الحديثُ معهُ من العصر حتّى بعد صلاة العشاء، وفى هذه الأثناء قدَّم إلىَّ

دعوةً باسمى من السّفير المجرى لحضور حفلةٍ تكريميّة أقامها له السفير، تليها مأدبة للعشاء؛ إذ شاء الرجل الدبلوماسى أن يجمع أصدقاءَ جرمانوس فى لقاءٍ أدبىّ بالسفارة بمناسبة زيارته للقاهرة، ولا أدرى لماذا اعتذرت، فقال جرمانوس ضاحكًا: ألا تُريد أن آكُلَ معك؟ فقلت: لو تكرّمت فإنّى أدعوك لزيارتى بالفيّوم مع السيدة حرمك لنأكل جميعًا، فنظر الرّجُل بابتسامٍ، وقال: الفيوم! لقد قرأت عنها، وسأحضر.

وفى هذه الجلسة النّادرة حدّثت الرجلَ عمَّا قاله أستاذنا إبراهيم نجا بشأن تعدّد الدّرس الواحد ذى الموضوع الواحد، فأخذ الدكتور جرمانوس بيدى فى قبضة يده، وقال لى: سأحدّثك عن عجيبة مُماثلة، فقد أتُيح لى أن أسمع درسًا فى فضائل الصّوم الإسلامى بالتركية فى مسجد استانبول، فدونتُ خلاصته فى مفكّرتى، ثم أتيح لى أن أسمع بالأوردية درسًا فى فضائل الصوم بمسجد دلهى بالهند، فدونت خلاصتَهُ فى مفكّرتى، ثم أُتيح لى أن أسمع فى مسجد الحسين درسًا فى فضائل الصوم باللّغة العربية، فدونت خلاصه فى مفكرتى، ثم طلبتْ منِّى إذاعةُ المجر درسًا باللغة المجرية عن الصوم الإسلامى بمناسبة شهر رمضان، فكتبت الحديث من وحى معلوماتى وخاطرى وأذَعْتُه، ثم بدالى أن أرجع إلى مفكرتى التى حوتْ خلاصة الدروس المتعدّدة فى اللغات المختلفة، فرأيتُ منْ غرائب الاتفاق والاختلاف ما جعلنى أندم على أنْ لم أكن تلميذًا متنقّلا فى مساجد الإسلام؛ لأدوّن كلّ ما أسمع، فأجنى الثمارَ الشهيّة من الشرق والغرب، ولكل ثمرةٍ مذاقها اللذيذ.

زيارة الفيوم:

ذهبت إلى القاهرة بعد يومين لأصطحب الدكتور جرمانوس إلى الفيوم وفْق ما اتفقنا عليه، فراعَنى أنْ يحدثنى فى الطريق عن مناطق المدينة السياحية، واعتزامه رؤيتها، وعن رغبته فى الجلوس أمامَ السّواقى الشهيرة، وزيارة أماكن الجمال الطبيعيّة فى بُحيرة قارون وعين السّيلسيّين، فقلت له: عجبًا! مَنْ أعْلمَك بهذا كله

عن بلدٍ لم تسمعْ به إلا منذ يومين؟ فقال: إنه زار أصدقاءه القاهريين، واستخبر عن المدينة ليكون على بيّنة من محتوياتها، وأنّ من عادته ألاّ يزور مكانًا فى الشرق أو الغرب إلاّ قرأ مادوّن فى كتب الرحلات عنه، فإذا لم يجدْ فى الكتب ما يروى ظمأه، سأل العارفين فاستفاد، ثم قال: إنه قرأ بالأمس نُبذةً عن تاريخ الفيوم القديم، وعلم أنّ يوسف الصدّيق قد أنشأ بها بحرًا لايزال يحمل اسمه، وهو مايعرف ببحر يوسف، وأنّ خصومه هم الذين أجبروه على حفر النهر؛ إذ أفهمُوا ملكَ مصر حينئذ أنّ يوسف وهو الوزير قد أهملَ إقليم الفيوم، ولم يَشقّ به من الأنهار ما يضمنُ وجودَ الزروع، وينمىّ الحاصلات، وأدرك يوسف مكيدة هؤلاء فتدارك الأمرَ، وحفر النّهر فصارت البلدةُ بعد ذلك جنّةً دانية القطوف.

وكنّا فى بدءِ موسم رمضان، فاشترط علىّ أن يكون إفطاره عند الغروب كوبًا من اللبن، مع قليلٍ من التمر، فقلت: قد ينفع هذا فى السحور، أما فى الوجبة الأولى للصائم فمحال، فقال إنه منذ خمسة أعوام لايُفطر فى رمضان على غير اللّبن والتمر، مراعاة لشيخوخته؛ لأنه يزحف إلى التسعين، وبعد حوارٍ قليل استجبتُ إلى ماأراد على كرهٍ، وأحضرتُ طعامى مع طعامه لأغريه، فما استجاب.

وكان الأستاذ محمود تيمور القصّاص الأشهر قد كتب مقالاً عن جرمانوس ذكر فيه أنّه أكول نهم، وأنّه رأى حَمَلاً مشويّاً ينضج على النار، والسّمن يكسوه من كل مكان، فما استطاع أن يَصْبر حتى ينزل من مقرّه فوق الجمر المتهب، وأخذ يمتلخُ قطعًا من اللحم ويزدردُها على سخونتها الحارّة، فتذكّرتُ ما قال تيمور، وحدثتُ الدكتور به، فضحك فى سرور، وقال: صَدَقَ تيمور، لقد كان ذلك قبل ثلاثين عامًا عند زيارتى الأولى لمصر، وكنتُ سليم المعدة لا أشكو من الحموضة مهما أفرطتُ فى الطعام، أمّا الآن فقد أجبرنى الزمن على أن أتحفّظ، وقد استمرت زيارتهُ للفيّوم يومين، طاف بها معى فيما رغب من الأماكن، وحين رأى المنحدرات النباتيّة ذات الشجر الظليل فى عين السّلسّبين قال إنها قطعةٌ من رياض سويسرا، وكأنّ الغرب قد انتقل إلى الشرق، ولاتزال رناتُ حديثه البديع تغمرُ أذنى بتسلسلها المطّرد مهما بعد الزمن.

مصر والعاميّة:

شكا جرمانوس إليّ مالاحظه من انتشار اللّغة العاميّة فى مصر، وقال إنه تعلم اللغة العربية أولّ ما تعلّمها من القواميس، وحين شرُف باعتناق الإسلام فى الهند، وأعلن ذلك فى مسجد دلهى، إذ خَطَبَ الجمعةَ وشرح دواعى إسلامه، رأى من الضرورىّ أن يتقن العربية لغة القرآن، فبذل جهده فى المجر مستعينًا بمعاجم اللغة، ثمّ بداله أن يحضر إلى الأزهر الشريف ليتلقّى الشريعة واللغة معًا، وحين وصل إلى الإسكندرية، وقدَّمَ جواز السفر بعد نزوله من الباخرة تكلّم بالعربية الفصيحة التى درسها من قبل، فأخذ السامعون يتضاحكون ويعجبون، ثم يَرُدُّون عليه بالعامّية التى لايفهم منها شيئًا، فجعل يضربُ كفا على كف، ويقول: لقد خفتُ أن أتحدّث بغير العربيّة فأكون أضحوكة فى مصر، فلماّ تحدّثت بها صرتُ أضحوكة!! ولكنّ الذين ضحكوا منه فى إدارة الجوازات لا يُساوونُ شيئًا جوارَ من قابلوا الضيفَ بمظاهر التكريم من كبار الأدباء والعلماء؛ إذا أُقيمتْ له حفلاتُ الاستقبال فى جمعيّة الشبان المسلمين، ودار الهداية الإسلامية، كما سعد بصداقة أعيان الفكر، وقادة الأدب، فأنزلوه أحسنَ منزل، وهيّئوا له الالتحاق بمعاهد الدراسة العربية، حتى أتقن اللغة إتقانَ المتمكن، وكتب فصولاً قيمّة بها، كما اختُصّ بعالم أزهرىّ كان يسهر معه فى مسكنه الخاص بحىّ الحسين، ليقرأ معًا كتب الشريعة واللغة والعقيدة، ثم اصطحب فريقًا من محبّى الآثار، من فرعونية، وإسلامية، ليبلغوه ما يريد رؤيته فى المتاحف والمعابد والمكاتب، والمزارات الإسلامية؛ إذ كان الرجل لايكتفى بالدراسة النظرية دون المشاهدة والعيان، بل إن المشاهدة تُتيح له أن يدوّن من المذكرات الشخصيّة ما يضيف الطريف إلى التليد.

رحلة الحجاز:

رحل جرمانوس إلى كثير من بقاع العالم، ولكنّ الذى فتن لبّه، واستولى على مشاعره مارآه فى رحلة الحج إلى البيت الحرام؛ فقد كان يرسم لهذه الربوع

الطاهرة صورةً زاهيةً قبل أن تكتحل عيناه برؤيتها، وكانت أشواقه تدفعه إلى استجلائها عن قرب، فلما تحقّق له ذلك أحسّ كأنه نبت فى الحجاز منذ نشأته الأولى، وأن الشمس والصحراء والقافلة والجمل والحُداء من أكبر عوامل بهجته وطربه، وكتابه الرائع (الله أكبر) يسجّل خواطرَ المؤمنةَ، ويرتفع به فيما يتناول من أحاسيسَ إلى مرتبة الشاعر المحلّق، ومع ذلك ففكرُ الرحّالة الدءوب لم يفارقه؛ إذ كان يسأل رفاق السفر عن كلّ مايرى مما يبحث عن تعليله وتحليله، وقد حدّثته عن المقالات التى تُرجمت من كتابه، وقلتُ له: إنّ حديثه عن الزواج فى البادية وفى مكة، وكيف كان يقترن الزوج بمن لايعرفها إلاّ بعد أن يعقد القران، وتصل إلى منزله، ثم هى فى اللقاء الأول تعتلّ عليه وتحاول أن تضربه بعنف إذا اقترب منها، هذا الحديث الشائق الذى سجّله الكاتب بدقة كان من الغرابة بحيث لايكادُ يتصوَّر؛ لأننّا إذا صدَّقْنا وسلّمنا أنّه لم يرها حتى قدمت منزل الزوجية، فمن الصعب أن نتصوّر عراكًا حاميًا فى اللقاء الأول، قلتُ ذلك لصاحبى، فذكر أنه أيضًا حار بعضَ الشىء فيما سمع، ولكنهّ لم يندهشْ لأنه قرأ من قبلُ فى رحلة ابن بطوطة أنه رأى بالهند فى ليلة الزفاف جماعة من أقارب الزوج يذهبون لإحضار الزوجة، فيجدون جماعةً من أقاربها يقفون أمام المنزل محاولين أن يمنعوا ذهاب العروس، ويدور نقاشٌ حاد، تعقبه معركة بالأيدى، ثم يطول اللجاج حتى يتدخَّل المحايدون فيستميلوا أهل الزوجة كى يأذنوا بذهاب العروس، ويتمّ الأمر بعد نزاع يطول، كلّ ذلك والقِران معقودٌ من قبل، والاتفاق تام على أكمل الوجوه، فكيف يُستغرب بعد ذلك أن تتأبّى الزوجة عند لقاء إنسانٍ لم تره من قبل؛ لابّد أن تدلّ وتتأبّى فى استعلاء.

دفاع عن العربية:

أجمل ما أذكره لجرمانوس بالشكر والتقدير، دفاعُه عن العربيّة فى وجه العامية؛ إذ كان يُشَنّعُ على من يُحاولون من أبناء اللغة الفصحى أن ينحدروا إلى الكتابة بالعامّية، ويرى ذلك قصوراً فى الملكة وتفريطًا فى رسالة القلم، ويتساءلُ: أيهّما أحسن للكاتب، أن يكتب لبلد واحد، أم للأمة العربية جميعها، ومما قاله فى

هذا الصدد أنّ كاتبًا عربيا أهدى إليه قصّة كتبها بلغة بلدته العامية، فلم يفهم منها شيئًا، فذهب بالقصّة إلى سفير هذه البلدة بالمجر، ففوجىء بأن السفيرَ نفسه يعترف بأنه لم يستطعْ مواصلة قراءتها؛ لأنها تضمّ ألفاظًا لم يسمعْ بها من قبل، وإذا كان المواطن القريب لايدرك عامية بلده لاختلافها من إقليم إلى إقليم، فكيف الظنّ بالقارىء البعيد؟ ولم يسكتْ جرمانوس عمَّا يحاول الاستعماريوّن أن يزيّنوا به انتشار العاميات، قطعًا لروابط الأخوة، ووَهَنًا لوشائج القُرْبَى، إذْ كشف النقاب عن ذلك فى نزاهةٍ وإخلاص. لقد كان عبد الكريم جرمانوس إنسانًا صادقَ الحس، نافذ البصيرة، قويّ الإيمان، ومثله لايغيب عن ذاكرة أصدقائه وعارفيه.

* * *